

## (٥) اصلاحيات نجد والهجاز واليمن:

### ١/ نجد والهجاز : المشاكل الاصلاحية

لم تحدث تغيرات اصلاحية واسعة في الهجاز وذلك للنفوذ العثماني الاسمي فيه، اذ كان الاقليم وتوابعه بيد اشراف مكة الذين كانوا منشغلين بالاوضاع التي استجده في نجد على يد الوهابيين والمشكلات السياسية المحلية التي احدثها قيام الدولة السعودية وتوسعها على حساب اقاليم الجزيرة العربية. ودخول كل من الاشراف وال سعوديين في صراع كانت بدايته منذ ان بدأ السعوديون يهددون بتوسيع دولتهم، واعتبار الاشراف تلك الدولة ودعوتها الوهابية خروجا عن الاسلام وتعاليمه... فكان ان منع الشريف غالب دخول النجديين الى مكة للزيارة او العمرة او التجارة او اداء فريضة الحج.. ثم أعد جيشاً من فصائل البدو الشداء زحف به من عاصمته مكة الى الدرعية عاصمة الوهابيين / السعوديين سنة ١٧٩٠م، وذلك بعد اربع سنوات من احراز الوهابيين النصر في نجد وتكوين الدولة السعودية الاقطاعية النجدية.. وفي عام ١٧٩١م، وبعد وفاة المؤسس الشيخ محمد بن عبد الوهاب امتلك السعوديون زمام الامور. وبدأوا يشنون غاراتهم السنوية على الفيافي والبطائح في كل من الهجاز واليمن..

وفي عام ١٧٩٦م، ارسل الشريف غالب قواته ضد الوهابيين، فاستمرت الحرب ثلاثة سنوات، وكانت الغلبة للوهابيين دوماً مع احتفاظهم بتفوق معنوي وسياسي فضلاً عن التنظيم والانضباط والثقة.. ثم انضم اليهم حكام الطائف وعسير وأخو الشريف نفسه اي حدوث انقسام في البنية الشرافية لمكة، فاضطر الشريف الى الاعتراف بـ«المذهبية الوهابية»، والى التنازل عن الاراضي التي استولى عليها الوهابيون.. والذين لم يكتفوا بذلك، بل كانوا يطمحون الى توحيد شبه الجزيرة العربية، فجددوا اذكاء الصراع ضد اشراف مكة بعد سنتين من الراحة...

وفي نيسان / ابريل ١٨٠٣م، استولوا على مكة، وسيطروا على ذخائرها وكنوزها وهدموا اضرحتها، وادعموا من وقف ضدهم وضد معتقدهم الوهابي.. فكان ان اشتعلت انتفاضة هجازية ضدهم، اضطرتهم الى التراجع عنها قليلاً، ولكنهم استولوا على «المدينة» سنة ١٨٠٤، وعادوا لسيطرة على مكة ثانية عام ١٨٠٦م ونهبوا مجدداً\*.

---

\* انظر : د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الدولة السعودية الأولى، القاهرة، ١٩٦٩.

هكذا غدا الحجاز جزءاً من مملكتهم التي غدت تمتلك حدوداً بحرية في الشرق والغرب اذ تطل على الخليج العربي من الشرق. وتطل على البحر الأحمر من الغرب. وقد ضمت جميع التخوم تقريباً من شبه الجزيرة العربية. وهي: نجد وشمر وحائل والجوف والحجاز وعسير واليمن وتهامة وقسم من عمان والاحساء والكويت.. اضافة الى اجزاء كان لهم فيها اتباع كثيرون كحضرموت وعمان التي لم تدخلها قواتهم... وهناك المساحات الهائلة من صحاري الربع الحالي !

ولم يحرز الوهابيون نجاحات في العراق وسوريا كذلك التي أحرزواها في الجزيرة العربية واقاليمها.. وعلى الرغم من قوتهم في الغارات التي شنوها على العراق وسوريا... لكنهم كانوا يتمتعون بالتنظيم والدقة والقوة والتماسك. وإذا كانوا قد لقوا تأييداً في دواخل الجزيرة العربية من لدن القبائل ورؤسائها، فقد حدث العكس لهم في كل من بلاد الشام ووادي الرافدين. اذ كان سكان هذين الاقاليمين ينظرون الى الوهابيين غرباء يحملون مذهبًا غريباً متذرر التحقيق في مدن عريقة كانت تزدحم بالمؤسسات والأجهزة والسكان والنظم والعقائد والاديان والمذاهب.. فضلاً عن المشكلات التي كانت تعيشها مجتمعات تلك المدن والارهاسات التي حفلت بها نتيجة كثرة الامتيازات وفعالية الارساليات، كما أن البلدين (= سوريا والعراق) تتوزع فيهما اكثراً من ست ولايات عثمانية كبيرة و مهمة كان لها وزن كبير في السياسة والادارة وال العسكريات العثمانية. ويكتسب اقليم الحجاز أهمية بالغة في قيمة التغيرات التي جرت فيه.. وهكذا، وبعد فشل الشريف غالب في دحر الغزاة اقلانياً، طلب الامدادات العسكرية من العثمانيين بواسطة مصر للوقوف امام الامتدادات السعودية . وهكذا - كمارأينا - كيف كسرت قوة محمد علي باشا شوكة السعوديين بالقضاء على دولتهم الأولى.

لقد كان على العثمانيين ان يرسخوا حكمهم في الحجاز، ولكن نفوذهم بقي اسماً، مما اضعف قيامهم باصلاحات واسعة فيه. فضلاً عن ان اصلاحاتهم وتنظيماتهم المدنية والعسكرية تتعارض جملة وتفصيلاً مع مصالح الاشراف الخاصة في مكة، فبقى التعليم دينياً برعاية المساجد ورجال الدين، كما ولم تدخل

فرص الحياة الجديدة والتنظيمات الاقتصادية .. وأسس نوري باشا والي الحجاز عام ١٨٨٣ أول مطبعة باسم «مطبعة الولاية» فكان من أولى ثمراتها: «التقويم العثماني السنوي لولاية الحجاز» (: حجاز ولايتى سالناته سى). اضافة الى تبني المطبعة عام ١٨٨٤ م. طبع الجريدة الرسمية «حجاز» كاول جريدة صدرت هناك<sup>٦</sup>.

## ٢ / اليمن : السيطرة الثانية والمصالح الجديدة

أما اليمن فقد نجحت الدولة العثمانية ان تعيد اليها الحكم المباشر سنة ١٨٧٢م (أي بعد ثلاث سنوات من فتح قناد السويس عام ١٨٦٩) بعد فشل محاولات مريرة بدأت مع عام ١٨٤٩م. وبعد ان نجحت بالتعاون مع بريطانيا في القضاء على قوة محمد علي باشا وطرده من اليمن. وقد جاءت السيطرة العثمانية الثانية على اليمن ضمن محاولات الدولة تشديد قبضتها على الاراضي العربية التي بقىت في حوزتها، وقد اتخد السلطان عبد الحميد الثاني مختلف السبل في بسط سيطرته على اليمن. فسخر وسائل عدّة في اخضاع اليمنيين.

لقد قرر العثمانيون تطبيق برنامج عمل يقوم أساساً على تضييق السبيل على الأئمة الزيديين الذين كانت لهم صولات وجولات من الصراع المحتمم ضد العثمانيين خلال القرن السادس عشر وابان السيطرة العثمانية الأولى.. بفرضهم الخضوع والاعتراف بالسيادة العثمانية على الرغم من اعتراف العثمانيين بزعامتهم المذهبية - الدينية . هكذا، حاول العثمانيون ان يحاصروا النفوذ الزيدي في مناطق ضيقه، بمحاربة مصالحهم ودعائهم وأماكن عبادتهم.. وجعلهم ينعزلون عن رؤساء القبائل وعن ابناء المدن... كما حاولوا القضاء على مواردهم بتأميم عوائد الزكوات للائمة ، ولا سيما راتب شهري قدره ثلاثة الاف ريال يدفع للامام المتكفل الحسن بن احمد ١٨٥٥ - ١٨٧٨م ولاسرته.

طبق العثمانيون قانون الولايات في ولاية اليمن، وقد قسموها الى اربعة ولوية، هي ، صنعاء والحديدة وعسير وتعز. واتخذت مدينة صنعاء عاصمة للولاية، ولكن بقي النفوذ العثماني منحصراً في بيئات مفتوحة، في حين بقىت المناطق النائية والجلبية الصعبة في منأى عن الادارة العثمانية والجيش العثماني.

<sup>٦</sup> د. السيد رجب حران، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ١٨٤٠-١٩٠٩، القاهرة، ١٩٧٠.

وكان قد تأسس ضمن التنظيمات العثمانية، الجيش الهمایوني السابع في اليمن متخدناً دائرة العسكرية السابعة في صنعاء. وقد عرفت ولاية اليمن ايضاً نظام الجندرمة (=جنود الضابطية) من ابناء اليمن انفسهم، اذ أمر والي اليمن اسماعيل حقي باشا الذي حكم ولاية اليمن في سنة ١٨٧٨م. ادخال اليمنيين في تشكيلات الجندرمة كي يكونوا عوناً لسلطته العثمانية في حفظ الامن وفرض الاستقرار وحماية الموظفين ومحاصلي الضرائب ومرافق المبعوثين والاداريين . وكان للجندرمة اليمنية الدور المبرز في اخماد التناقضات، وفرض الامن في الولاية على امتداد الحكم العثماني الثاني للفترة ١٨٧٢-١٩١٨.. كما وفرض تطبيق قانون الولايات العثماني سنة ١٨٦٤، وكان له أثاره في التقسيمات الادارية. ونظام الادارة المركزية - العثمانية\*.

ويؤكد عدد من المؤرخين ان العثمانيين قد حرصوا على ادخال كثير من الاصلاحات الحديثة، ولكنهم كانوا يصطدمون دوماً بالثورات والعناصر الرجعية التي تحركها الامامة مما جعلهم يستخدمون القسوة في احياناً كثيرة. كما وكان ذلك يصرفهم عن متابعة الاصلاحات، وكان المصلحون يتهمون دوماً بالمرور عن الدين... كما ان هناك من يؤكّد ان العثمانيين لم يكونوا سبباً في تأثير اليمنيين الذين كانوا متقوّعين على روابطهم التاريخية.. وقد خلَدَ التاريخ لبعض الولاة والموظفين العثمانيين في اليمن اعمالاً رصينة وعدلاً وحبّاً للبيان واهتمامًا بشأنه من الآئمة، ولكن امثال أولئك الولاة والموظفين كانوا قلة على غرار من اتى من الولاة والموظفين المصلحين في بقية الولايات العربية الاخرى في المشرق العربي.

---

\* د. فاروق عثمان اباظة، الحكم العثماني في اليمن ١٨٧٢-١٩١٨، القاهرة، ١٩٧٥.